الحجاج في الخطاب الحسيني (مقاربة تداولية)

الأستاذ الدكتور
سلافة صائب خضير
جامعة بغداد ـ تربية ابن رشد

بين يدي البحث:

الحسين عليه السلام قائد عظيم من قادة الإسلام العظام، متصف بالحلم والشجاعة، والصبر على المحن، والوقار، والرفعة والسؤدد، والجلالة، والمهابة، والجود، وهو الثائر في سبيل إعلاء كلمة الحق، ورفض الباطل وردعه، عاش الحسين عليه السلام في مهبط الوحي في بيت النبوة، بيت جدّه الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، فعاش في كنف النبوة، ونهل الشجاعة والبطولة من والده الإمام عليّ عليه السلام.

والحسين عليه السلام رمز وأنموذج تمثلت فيه الرسالة ومعانيها السامية، وتحققت في حياته أمجادها، وهو امتداد حقيقي للرسالة المحمدية. وهو إمام المسلمين وبه ترتبط أمورهم، ويمتاز الحسين عليه السلام بعلمه بالدين بمعارفه كلها بشكل تام وكامل، فهو مرجع مهم في أمور الدين وله من الشرف ومكارم الأخلاق والحكمة، والتدبير والإقدام ما يؤهله ليكون إمام المسلمين بحق وجدارة. ومن يعش في بيت النبوة، وينهل من ذلك النبع الصافي فلابد أن تكون في لغته أسرار خفية لا يدركها إن من ينعم النظر في تلك اللغة الصافية النقية.

لابد لمن يستعمل اللغة من غرض أو أغراض يريد إيصالها إلى المتلقي، لكن المعروف لدى الذين يستعملون اللغة أن الغرض الأساس منها هو التواصل، وهذا ما وجدناه واضحا في الخطاب الحسيني الذي كان عماده الأساس الحوار العقلي المنطقي المبني على أصول فكرية راسخة في العلم والمعرفة، وفي بحثي هذا أحاول تطبيق مفاهيم التداولية على نص يتماشى مع هذه المفاهيم؛ ومما ساعدني في تحقيق هذا الهدف أن التداولية تدرس اللغة في واقعها في حال الاستعمال، أي فعل الكلام، ويبدو لي أن الحوارات التي ظهرت في واقعة الطف تحقق هذا الهدف المنشود، ومما لا شك فيه أن اختيار الخطاب الحسيني هو واجب حتم على من يريد أن يدرس اللغة العربية الفصحى من منبعها الصافي الرقراق الذي

يحقق أعلى إبداع لغوي.

مميزات الخطاب الحسيني أهميته:

لابد من الوقوف على أمر مهم عند دراسة الخطاب، يتمثل في شخص المتكلم، وأثره في البيئة الحوارية المحيطة به وبمن يستمع إليه، وتحقق هذه الأهمية في استعمال الضمائر مثل الضمير أنت والضمير أنا، ثم هناك المخاطَب الذي قد يكون شخصا واحدا أو اثنين أو مجموعة أشخاص، وهؤلاء المتلقون المختلفون هم هدف الإقناع بقول ما قال عليه السلام: "ويلكم! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في أمر دنياكم أحرارا ذوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طَغَامكم وجُهّالكم"(١)، ففي كلامه هذا إشارة إلى المستقبل وشخص الحسين عليه السلام يمثل القوة والمنعة، فهو يطلب من الناس بل يأمرهم بعمل الصواب ونلاحظ تمثل الضمير (أنا)، في ياء المتكلم في رحلي وأهلي، ويتمثل ضمير المخاطب في الضمير (كم) في قوله طغامكم وجهالكم، وخطاب آل البيت عليهم السلام بشكل عام، الخطاب الحسيني بشكل خاص هو خطاب مهم؛ لكونه يعبر عن المرحلة التاريخية التي يمثلها من جهة اللغة لكنه يمثل المراحل التي تتابع عبر العصور، من خلال إيضاح الأحوال التي ستمر بها الأمة الإسلامية فيما يلي تلك المرحلة من عصور. وقد جاء الزمان مصدقا لما قاله الإمام الحسين عليه السلام، ومما يلفت النظر إليه أن في النصوص الحسينية في واقعة الطف كلها استشراف للمستقبل وتوقعا له أسوق مثالا على ذلك، قال عليه السلام: " أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرُم الله، ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يُدخله مُدخَله). ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء. أحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غَيّر"(٢). ولو أعدنا التأمل في قول الحسين عليه السلام سنجده حقا وصدقا كلاما صالحا لكل مكان وزمان لا يختلف في ذلك اثنان.

وذلك أمر تقره البديهة فالإمام الحسين عليه السلام سيد من أسياد البلاغة العربية، وقد استطاع في خطابه الذي نجده في واقعه الطف من أن يقدم قولا، أو مجموعة أقوال قادت من يسمعها إلى الإذعان والتسليم، فهو في خطابه يقدم موجهات تعبيرية تحقق توجيه المعطى نحو النتيجة

مباشرة مما يحقق عملية إذعان المستقبل وتسليمه بما سمع اعتماداً على العناصر اللغوية الاولية وصولا إلى التركيب في بنية خاصة توضح قصد المتكلم.

العلاقة بين الحجاج والتداولية في الخطاب الحسيني:

تطور الحجاج بشكل كبير في الدرس الحديث، فصار صفة يوصف بها كل خطاب لساني أو غير لساني، وأجد أن أحسن مثال يوضح فكرة الحجاج هو الخطاب الحسيني لكونه مبنيا على عمليتي الإقناع والتأثير من خلال سوق الأدلة والبراهين والحجج التي يعرفها الجميع فصارت بمثابة الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى برهان عليها، فلا يحتاج المتكلم إلى أن ينتظر الإجابة من المقابل أو السامع؛ لأن الأخير مدرك بشكل كبير صحة الأدلة المقدمة.

يعرف الحجاج بكونه "صنفا مخصوصا من العلاقات المودَعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية والخاصية الأساس للعلاقة الحجاجية أن تكون درجية... أو قابلة للقياس على الدرجات، أي أن تكون واصلة بين سلالم"(٣).

ولابد لنا من تحديد القاعدة التداولية التي تربط الصلة بين العلامات مع وجود مكون تداولي في كل القواعد، وهذه القواعد تعبر عن الشروط التي ينبغي أن يستجيب لها المؤولون (٤).

ويتحدد دور الدراسة التداولية في أمرين:

ـ تحديد الأعمال اللغوية المهمة وذلك هو تحليل الأعمال المتضمنة في الأقوال.

ـ تعيين خصائص سياق التلفظ الذي يحدد أي القضايا يعبر عنها بجملة معطاة (٥).

ولابد من الإشارة إلى أن الخطاب هو رسالة معدة مسبقا وبإطار محدد، وللخطاب نظام ذو تركيب وتناسق معينين، والخطاب نتاج يلفظه الفرد ويهدف إلى إيصال مضامين واضحة إلى المتلقي بوسيلة ما تكون مؤثرة فيه، ووراء كل خطاب راوٍ مرسل يهدف إلى التأثير في قاريء الخطاب أو مستمعيه أو متلقيه (٦).

تدرس التداولية العلاقة بين العلامة ومؤوليها، ويشير الحديث عن تلك العلاقة إلى

مستعمل العلامة التي تمر قبل هذا الاستعمال بعملية تؤويل ذهني تمكن من استعمال علامة بعينها، وليس العلامات الأخرى، والتداولية درجات، أولاهما: دراسة الرموز الإشارية وسياقها السياق الوجودي أو الإحالي، ثانيهما: دراسة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها في الحالات العامة، ولها سياق وسياقها السياق الذهني المترجم إلى تحديد العوالم الممكنة، أما الدرجة الثالثة في نظرية أفعال اللغة، والسياق الذي يحدد فيها التلفظ الجاد(٧).

وخطاب الإمام الحسين عليه السلام يرمي إلى تحقيق أهداف ثلاثة الإنابة والإبلاغ والإقناع من خلال الاستناد إلى الدلائل العقلية والعلمية، وعندها نبعث في هذه الدلائل يمكننا إدراك حقيقة الخطاب الحسيني، وقد حاولت في بحثي الوقوف على مواضع تمثل الحجاج في الخطاب الحيسني في واقعة الطف ومحاولة استبيان نوع الحجاج الحسيني، والمسار ذلك الحجاج والمؤشرات الاحتجاجية فيه.

الحجاج الحسيني هو خطاب عبّر فيه الإمام الحسين عليه السلام بأشكال من الأساليب التي رام فيها الحوار، وأراد إقناع مستمعيه بالبراهين والأدلة العقلية والفطرية، ويرتبط الحجاج بالفعل وهو البحث في محاولة ترجيح خيار من خيارات موجودة وذلك بقصد وضع فاعلين معينين في مقام خاص وجمعت كلها في كلام بليغ واضح، يبدو بعد التأمل الدقيق يسير في مسارات منها:

- حجاج قاد إليه العناد ومحاولة النيل من الاسلام.
- حجاج غايته الإرشاد والإعتبار.
- حجاج هدفه إظهار الحق بالمحاورة التي تبين الصواب وتحققه.

ولما كانت التداولية تدرس أغراض القائل التي استعملها في المقام الذي هو فيه لهذا سأستعين بدراسة الخطاب الحسيني بمستويات ثلاثة:

- مستوى الأداء اللغوي.
- مستوى المضمون الذي تحققه اللغة عند استعمالها.
- مستوى الأثر الذي يحدثه القول في المستمع.

والتداولية من المناهج المهمة التي يمكنها إغاثة الباحث في التحليل اللغوي، متجاوزة الصورة والشكل، ثم يجعلها قادرة على الولوج إلى المضمون، وما يؤديه من معنى مباشرة مهتمة بالعلاقة التي يقيمها المتكلم عندما يستعمل اللغة. وتساعدنا التداولية في التحليل من خلال إيجاد آليات عدة تمكن الناقد من تفسير الأدوات المستعملة في الكلام وتعين مرجعها الخارجي مثل: الضمائر على سبيل المثال، وهناك أمور أخرى تعين على الفهم منها الوظائف التداولية والإفتراض المسبق والفعال الكلامية.

ولابد قبل الولوج في ميدان البحث من الإحاطة بشكل يسير بمفهوم التداولية، يعد الفيلسوف تشارل موريس أول من بشّر بالتداولية عندما درس الرموز اللغوية بطرائق متعددة هي: الجانب النحوي الذي يهتم بالعلاقة التي تربط الرموز بعضها ببعضها الآخر، ثم الجانب الدلالي الذي يهتم بالعلاقة بين الرموز اللغوية والأشياء التي تدل عليها، ثم الجانب البراغماتي الذي يعنى بالعلاقة بين الرموز اللغوية والمتلقي متمظهرة بالجوانب النفسية والحياتية والإجتماعية وكيفية استعمالها [٨].

والتداولية ليست علما لغويا محضا لكنها علم جديد يحقق التواصل تدرس فيه الظواهر اللغوية التي تظهر عند الاستعمال، وتندرج تحتها مشاريع معرفية شتى تفيد في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتعمل على تفسيرها [٩]، فالتداولية تنظر إلى اللغة من خلال عملية الكلام، والسمات التي يتصف بها النظام اللغوي، أي اللغة المنطوقة وهذا هو مجال الإبداع الحقيقي الذي يحق أن ننظر إليه وندرسه بشكل جيد، ومن هنا يمكن أن تظهر أهمية اللغة المتحدثة[١٠].

والتداولية مفهوم يهتم به المناطقة والسيميائيون، وعلماء التواصل واللسانيون والبلاغيون لهذا لا يمكن أن نصنفها في أي من المستويات التي تعنى بها تلك العلوم، بل هي تستوعبها جميعها. وتوجد تداوليات متعددة يوحدها العنصر الشكلي التي تساعد في ممارسة سلطة المعرفة في إطار استراتيجيات توجه النقاش وهذه التداوليات هي: تداولية البلاغيين الجدد، وتداولية السيكولوجيين، وتداولية اللسانيين ثم تداولية المناطقة والفلاسفة [١١].

ولا تعد التداولية من العلوم اللغوية البحتة، بل هي علم مكتفٍ بوصف البنى اللغوية وتفسيرها، والوقوف عند حدودها وأشكالها الواضحة للعيان، وهي علم جديد تفيد التواصل توضحه ظواهر اللغة عندما نستعملها، وبهذا يدخل الكلام ضمن التواصل

اللغوي، وتفسير ذلك التواصل، ومن خلال الحديث عن التداولية، ولابد من الإشارة إلى الوشائج بينها وبين الحقول المعرفية غيرها، وسبب ذلك تداخلها مع حقول مختلفة مثل بنية اللغة، والقواعد التخاطبية، والاستدلال التداولي والطرائق الخاصة التي تؤدي إلى إنتاج الكلام، ثم طبيعة بنية اللغة الناتجة عن الأحوال المحيطة باستعمالها، والتداولية في كل هذا تسعى إلى البحث عن قوانين الاستعمال اللغوي الكلية، ومحاولة تثبيت أسس للتواصل بين الناس، أي أن التداولية مرتبة باستعمال اللغة في المقامات المتباينة، وهذا يعني وجود متكلم معروف يوجه كلاما معروفا إلى مخاطب معروف في لفظ معروف مما يحقق غرضا معروفا(١٢).

وأوضح الأدلة على ذلك المنظر المحزن الذي استشهد فيه القاسم بن الحسن عليه السلام، ويصور الطبري ذلك عندما ذكر خروج غلام كأنه وجهه شقة قمر حاملا السيف فأراد عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدي أن يقتله فضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه فشدّ الحسين عليه السلام على الأزدي، فجاءت خيل ليستنقدوه من الحسين عليه السلام فحركت حوافرها وانجلت الغبرة؛ فإذا الحسين عيه السلام قائم على رأس الغلام، والغلام يَفحص برجليه، والحسين عليه السلام يقول: بعدا لقوم قتلوك؛ ومن خصمهم يوم القيامة فيك جَدّك ! ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يُجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك ! صوت والله كَثُر واتره، وقلّ ناصره(١٣). فلو نظرنا إلى كلام الحسين عليه السلام سنلاحظ أن المتكلم معروف بمكانته العظيمة، والكلام الذي وجهه للمخاطبين معروفة عظمته ومكانته ومعناه المؤلم، والمخاطبون معروفون فهم كل أناس رضوا بهذا الفعل المشين إلى يوم الدين، فهذا الطفل المظلوم سيدافع عنه، ويختصم فيه الرسول العظيم صلى الله عليه وآله.

الظواهر المتعلقة بقوانين الخطاب:

هناك ظواهر مهمة متعلقة بقوانين الخطاب، أولهما الإفتراض المسبق الذي يكون شركاء التواصل الكلامي منطلقون فيه من افتراضات معترف بها سابقا، وهذه الافتراضات مهمة لتحقيق نجاح عملية التواصل في سياقاتها وبناها التركيبية(١٤). وهي مهمة في ترسيخ معلومة جديدة في ذهن أي إنسان، أي لابد من وجود أسس قارة يمكن الإنطلاق منها والبناء عليها(١٥) وثانيهما: الأقوال المضمرة التي ترتبط بالخطاب ومقامه، وهي مجموعة المعلومات التي يضمنها الخطاب غير أن تحقيقها يكون بحسب سياق الكلام. وهنا تكون قائمة

التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات والطبقات التي ينجز ضمنها الخطاب، والفرق بينه وبين الافتراض المسبق أن الأول وليد السياق الكلامي والثاني وليد ملابسات الخطاب(١٦).

ومن هنا سيغدو السياق اللغوي شيئا مهما يمكن من خلال إدراك المعنى الخفي في تداول الكلمات بين المتكلم والمتلقي في سياق يحدده الكلام بينهما من خلال التجاوز إلى مستويات أعمق، وأكثر استكشافا للظاهرة اللغوية وعندها ستكون التداولية نظرية تتحدد من خلال الاستعمال، أي الخطاب الذي يتولد من خلال الكلام مع الناس، أي تخاطبهم فيما بينهم، وعلى هذا يغدو الخطاب سلسلة من الجمل المنطوقة، ولا يختلف الخطاب عن النص، وقد يتجاوزه أكثر للدلالة على الاستعمال الفعلي للغة، وهو مجرد سلسلة لفظية تحدها قوانين اللغة من خلال المقام(١٧). من ذلك ما قاله الحسين عليه السلام عندما أتوه بصبي له مذبوح، فهو في حجره فتلقى الحسين عليه السلام دمه، فلما ملأ كفّيه صبه في الأرض ثم قال: ربّ إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين(١٨). فكلام الحسين سلسلة متواصلة من الجمل المنطوقة تدل على ما فرضه المقام من الكلام الذي نجد فيه تسلسلا فبدأ بذكر السماء ثم نزل إلى ذكر الأرض وما فيها من الجور والظلم.

وبذلك يمكننا أن نجد ما سبق متحققا في واقعة الطف في أن الخطاب الحسيني أمكنه أن يوصل لنا تجسيدا لأحداث حصلت في المجتمع الخارجي، وهناك تواصل بين المرسل والمتلقي والرسالة، وهناك الواقع التواصلي الذي هو المقام الذي قيل فيه الكلام، الذي سيكون له مرجعيات اجتماعية ونفسية وإنسانية من خلال تبادل المواقع بين المرسل والمتلقي، فيتحول أحدهما مكان الآخر. ومن هنا سيحقق الخطاب الحسيني التواصل والتبليغ مع وجود عنصر مهم هو القصدية. ويحقق الخطاب عندما يكلم الناس بعضهم بعضا، وبهذا سنتأكد أن الخطاب هو مجموعة جمل منطوقة متسلسلة، ومجال اهتمام التداولية في دراسة اللغة في حال استعملها المتكلمون، وهذا الأمر يولد نوعا من التواصل الذي يريد صاحبه أن يوضح فكرة ما، أو يجسد قيمة إنسانية ما، لأن اللغة بعدما قيل هي الأداة المعرفية التي نستطيع بوساطتها فهم الكون فهما صحيحا للسان العربي(١٩). الذي يتميز بكونه لسان إبداعي تتغير خصائصه بحسب المتكلمين الذين يتغير معنى كلامهم بحسب المقام الذي يقال فيه ذلك الكلام.

الوظائف التداولية في الخطاب الحسيني:

اهتم العلماء العرب سواء أكانوا نحاة أم بلاغيين بدراسة العلاقة بين بنية المقال ومقتضى المقام؛ لذا اقترحوا أوصافا مختلفة لظاهرة التخصيص وظاهرة العناية وظاهرة التوكيد وظاهرة الحصر. وعللوا النظر في هذه الظواهر من خلال فهم الخصائص البنيوية المميزة للبنيات المتنوعة، مستندين إلى المقامات التي تنجز فيها مما يعني بعبارة أخرى أن الوظائف التداولية هي التي ترسم للمتكلم الطريقة التي يبني بها جملته. ولابد بعد هذا من النظر إلى مفاهيم مهمة هي: المبتدأ، والبؤرة، والاقتضاء وغيرها من المفاهيم التي تمكن المتكلم من التمثيل الصحيح المقبول. فالبؤرة تتشكل في المكون الحامل للمعلومة التي تكون مهمة أكثر من غيرها؛ مما يجعلها بارزة في الكلام بشكل واضح[٢٠].

والبؤرة نوعان هما: البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها المخاطب التي لا تدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلم والمخاطب[٢١]. ومن أبدع ما قاله الحسين عليه السلام ممثلا لهذه البؤرة قوله يجيب على كلام الحر: "أ فبالموت تخوّفني! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني! ما أدري ما أقول لك! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله. فقال: أين تذهب فإنك مقتول؛ فقال:

سأمضِي ومَا بالمَوتِ عارٌ عَلى الفَتى ... إذا مَا نَوى حَقا وجَاهد مُسلِما

وآسى الرجالَ الصالِحينَ بنفسهِ ... وفارقَ مشبورا يَغُشُّ ويُرْغما

فالمعلومة التي يجهلها المخاطب هو يقين الحسين عليه السلام بنصر الله عز وجلّ، حتى لو بدا الأمر على غير ما يفهمه غيره، لهذا بدأ كلامه باستفهام انكاري يعترض فيه على من يكلمه. ومما يؤيد ما نقول أن الحر لما سمع منه تنحى عنه[٢٢].

وهناك بؤرة المقابلة التي تستند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يشك المخاطب في ورودها وأحيانا ينكر ذلك المخاطب ورودها. وهذا النوع لا وجود له في النصوص الحسينية الشريفة، لأن كلامه كله حق وصدق، والنوعان كلاهما يختلفان من جهة المقام المتميز لأي واحدة منهما في الأنماط البنيوية المختلفة[٢٣].

فقد يجهل المخاطب المعلومة التي يبغي المتكلم أن يعطيها له، وأحيانا يجهلها المخاطب.

وفي بعض الأحيان قد يجهل المتكلم تلك المعلومة التي يطلبها من المخاطب وهذه الحالة تكون في حالة الاستفهام. ومنها ما قد يكون المخاطب على علم بمعلومات عدة ينتقي المتكلم للمخاطب المعلومة التي يعتبرها واردة. وأحيانا قد يعرف المتكلم مجموعة من المعلومات يطلب المتكلم أن ينتقي له المعلومة الواردة مثلما يحصل في حالة الاستفهام، وربما يحاول المتكلم تصحيح معلومة يعرفها المخاطب(٢٤). مثال ذلك قول الحسين عليه السلام مخاطبا أخته عليها السلام: "يا أخية، اتّقي الله وتعزّي بعزاء الله، وإعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون، وهو فرد وحده، أبي خير مني، وامي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة... يأخية، إني أقسم عليك فأبري قسمي، لا تشقّي عليّ جيبا، ولا تخمشي عليّ وجها، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت"(٢٥). فأخت الحسين عليه السلام تعرف تلك المعلومات لذلك انتقى لها معلومات محددة أراد منها أن تركزعليها، وكأنه بهذا الكلام يخاطب الناس كلهم الذين سيطلعون على هذا الكلام إلى أبد الآبدين.

تستند وظيفة المحور إلى المكون الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الجمل، وتسند وظيفة المحور إلى المكون الدال على ما يشكل المحدث عنه داخل الجمل، ويمكن إسناد هذه الوظيفة إلى أي مكون من مكونات الجملة إلا أن المكون الحامل للوظيفة التركيبية الفاعل يستأثر غالبا بأخذ هذه الوظيفة. تسند إلى المكون المحور باعتباره مكونا داخليا أي باعتباره موضوعا من موضوعات الجمل الإعرابية المجردة التي تقتضيها وظيفته الدلالية أو وظيفته التركيبية إذا كان حاملا لوظيفته الدلالية. ويمكن أن يحتل المكون المحور الموقع الذي تخوله إياه وظيفته التركيبية أو وظيفته التركيبية أو وظيفته الدلالية كما يمكن أن يحتل الموقع غيره، إلا أنه يحتل حسب اتجاه عام، هذا الموقع الأخير في أغلب الأحوال وتختلف أحكام موقعه المكون تبعا لأنماط البنيات الثلاثة في اللغة العربية: البنية الفعلية والبنية الاسمية والبنية الرابطية، ويربط المكون المحور المتموقع في الجملة موقعا أو ضميرا محاولا له داخل الجمل. ويخضع الربط الموقعي دون الربط الضميري لقيود الجزر المعتادة صياغتها على اساس أنها قيود الربط. ويمكن إعادة صياغة هذه الجزر في إطار النحو الوظيفي أما على اساس إعتبارها قيودا موضوعة على الربط الموقعي أو على أساس أنها قيود ضابطة لقاعدة الموقع(٢٦).

ويمكننا إيجاد المحور في قول الحسين عليه السلام: "ايها الناس؛ اسمعوا قولي، ولا تُعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدّقتم قولي، وأعطيتموني النّصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النّصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون"(٢٧). ونجد المحور في وظيفته المهمة في الجملة من خلال قوله اسمعوا وهو فعل أمر يبدو فيه واضحا ربط الجمل التي تليه، فالجمل لا تعجلوني، أعظكم، أعتذر، قبلتم، صدقتم، أعطيتموني، أسعد، اقضوا، تنظرون. ويمكننا إعادة بناء الجمل بشكل مختلف، ولكن هذا البناء الجديد يعطي فكرة بشكل جديد لكنه يمثل الفكرة نفسها غير أن الترتيب الذي إختاره الحسين عليه السلام كان الاختيار المثل الذي لا يعلى عليه.

وتبدو للمبتدأ قيمة تداولية وتتحدد قيمة المبتدأ وخصائصه التداولية في اللغة العربية. وما يميزه عن وظائف تداولية أخرى في أن المبتدأ له وظيفة تتحدد بحسب المقام. ويتيح إعتبار المبتدأ وظيفة تداولية وصف خصائصه بطريقة أكثر طبيعية إذ أن هذه الخصائص جميعها يمكن أن تفسر إنطلاقا من منظور تداولي. ويشاطر المبتدأ في بعض خصائصه وظائف أُخر كالمحور، والبؤرة، والذيل إلا أنها تختلف عنه، من جهة. وتتمايز فينا بينها من جهة أخرى. ومن هنا لا يمكن إذا ثبت هذا التمايز الاستمرار انطلاقا من تحليلات النحاة العرب في عدها تحققات مختلفة لوظيفة واحدة هي وظيفة المبتدأ، ولا يمكن بعدها الاستمرار في إطلاق المصطلح نفسه عليها. ولابد من القول أن هذا الكلام يشتمل على المبتدأ وما في حكمه، مثل اسم إن واسم كان(٢٨)، ومن ذلك قول الحسين عليه السلام يخاطب من يكلمه: " أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا؛ هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم صلى الله عليه وآله وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه! أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي؟ أوَ ليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمّي؟ أوَ لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: "هذان سيدا شباب أهل الجنة"! فإن صدّقتموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم؛ سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري،

أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك؛ يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي. أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟"[٢٩]. نلاحظ أن المبتدأ أو ما يحل محله كانت له قيمة تداولية، ونجد (من) اسم الاستفهام، ثم تاء الضمير المتصل بليس، ثم نجد المبتدأ (ابن)، وأول، وهناك كلمة حمزة وجعفر ثم كلمة رسول وكلمة (هذان)، والضمير هو، ثم الاسم الموصول من، وكلمة حاجز، نلاحظ أن كل كلمة مبتدأ وردت في النص تدل على أهمية الكلمة التي يشير إليها مما يدفع المتلقي إلى الاهتمام بهذه الكلمات لا غيرها، وإذا أردنا البحث عن كلمة المبتدأ الأكثر أهمية سنجد (وهو الحق)، وهي الكلمة المحور التي تحدد الفكرة المهمة المطلوبة التي أراد الحسين عليه السلام أن يوضحها لسامعه.

وهناك وظيفة الذيل في النحو الوظيفي وهي وظيفة تداولية شأنها في هذا شأن المبتدأ والبؤرة والمحور، وتختلف الوظائف الثلاث عن الصنفين الآخرين من الوظائف الدلالية[٣٠]. ويحمل الذيل المعلومة داخل الجمل المراد تعديلها... ويتضح أن المكون الذيل يقوم على مستوى البنية الاخبارية للجملة بدورين هما: دور التوضيح ودور التعديل، وهناك دور أخير هو دور التصحيح وهذه هي أدوار الذيول[٣١]. ويتميز الذيل بأنه مكون خارجي لا يشكل عنصرا من عناصر واحدة من مكونات الجمل[٣٢]. فمن نوع ذيل التوضيح قول الحسين عليه السلام: "اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرّقهم فرقا، وإجعلهم طرائق قددا، ولا تُرض عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا "[٣٣]. فقول الحسين عليه السلام فرقهم فرقا فيه وضح الحسين عليه السلام ما أراد من التفريق، وقوله: وإجعلهم طرائق قددا وضح في الذيل قددا ما أراد من الدعاء.

وهناك ذيل التعديل الذي يعدل فيه الحسين عليه السلام الكلام من ذلك قوله: "قال لأصحاب الإبل: لا أكرهكم، من أحب أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسنا صحبته، ومن أحب أن يفارقنا من مكاننا هذا أعطيناه من الكراء على قدر ما قطع من الأرض[٣٤]. ونجد ذيل التعديل في قوله عليه السلام أوفينا كراءه ولو قال أوفينا له لفهم القصد من قوله ثم قوله أعطيناه من الكراء، ولو قال أعطيناه لفهم المراد من الكلام. ثم هناك ذيل التصحيح، ونجد مثاله في قول الحسين عليه السلام: "والله لأن أقتل خارجا منها بشبر أحب إلي من أقتل داخلا منها بشبر،

وأيم الله لو كانت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم، ووالله ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت"[٣٥]. فذيل التصحيح في قوله: خارجا منها بشبر، وداخلا منها بشبر ففي هذا الذيل تصحيح لمعلومات كانت حاضرة في ذهن المخاطب رام الحسين عليه السلام تصحيحها. فهو بذلك صحح معلومة وردت في ذهن السامع.

فعل كلام في النصوص الحسينية:

فعل كلام مرتكز أساس في الدرس التداولي، وفكرته أن الكلام المنطوق لابد من أن يستند إلى نظام خاص قد يتخذ الشكل محورا له، أو قد يعتمد الدلالة أساسا له، أو التأثير في المتلقي، وهو بهذا سيكون الكلام نشاط نحوي يفيد من الأفعال القولية مما يحقق الأغراض المهمة مثل الوعد والوعيد، الطلب والأمر، الخبر والإخبار، وغيرها، وهو يحقق غايات تؤثر في المتلقي؛ مما يولد عنده رد فعل يلحظه المتكلم كالرفض والقبول وبهذا فإن فعل الكلام يكون مؤثرا في المخاطب من الناحية الاجتماعية، أو المؤسساتية، مما يؤدي إلى تحقيق شيء ما[٣٦]. من ذلك قول الحسين عليه السلام عندما أجاب بقوله يا بن أسعد، رحمك الله، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين ورد عليه ابن اسعد جعلت فداك! أنت أفقه مني وأحق بذلك، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا [٣٧]. فراه في كلامه عليه السلام قد حقق تأثيرا كبيرا فيمن يسمعه فقام ابن اسعد للذب عن الحسين عليه السلام فقاتل حتى قتل.

وفعل كلام أقسام[٣٨]:

- أولهما: فعل القول وهذا يعني أن تكون الألفاظ جملا مفيدة ذوات بناء نحوي صحيح، مما يولد دلالة صحيحة. ومن هنا يكون فعل القول مشتملا على أفعال لغوية فرعية، وتكون تلك الأفعال على مستويات متنوعة: هي المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، ولا يفهم الخطأ من الصواب إلا بالرجوع إلى السياق وقرائنه؛ لتحديد قصد المتكلم وغرضه. من ذلك قول الحسين عليه السلام عندما قتلوا ولد عليا عليه السلام: قتل الله قوما قتلوك يا بنيّ ! ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول ! على الدنيا بعدك العفاء وذكر من نقل هذه الحادثة أن امرأة

خرجت من الفسطاط مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي: يا أخيّاه! ويا ابن أخيّاه! وهذه المرأة هي زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ فما كان من الحسين عليه السلام إلا أن أعادها إلى الفسطاط(٣٩). فكلام الحسين عليه السلام مكون من جمل مرتبة ترتيبا نحويا صحيحا مما ولد دلالة صحيحة، وكان فعل القول مشتملا على مستويات متنوعة ونفهم رد فعل السامع من خلال رد فعل السيدة زينب عليها السلام أنها خرجت مسرعة لتندب من قُتل، لكن الحسين عليه السلام أعادها بعظمته المعهودة إلى الفسطاط؛ لأنه قائد عظيم متمالك لزمام الأمور حتى في أحلك الظروف.

- ثانيهما: الفعل المتضمن في القول: أي العمل الذي ينجز بقول ما، وهي الأفعال التي تكمن خلف القوى الانجازية مثل السؤال وإجابته والتأكيد أو التحذير، أو الوعد أو الأمر، وبهذا يعني القيام بفعل ضمن قول يقال. وصف الطبري عدوان شمر بن ذي الجوشن عندما حمل رمحه ليطعن فسطاط الحسين عليه السلام، ونادى عليّ بالنار حتى أحترق هذا البيت على أهله، فصاح به الحسين عليه السلام: يا بن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرّق بيتي على أهلي، حرقك الله بالنار(٤٠). ففعل الكلام متضمن في قول الحسين عليه السلام حرقك الله بالنار، فقد تضمن فعل أمر فيه معنى الدعاء على المعتدي.

- ثالثهما: الفعل الناتج عن القول، ويكون الفاعل هو الشخص المتكلم القائم بفعل ثالث، وهو التأثير في المشاعر ومحاولة توجيهها من خلال الإقناع، أو التضليل، أو الإرشاد، أو التثبيط، وهو ما يسمى فعلا تأثيريا. من ذلك قول الحسين عليه السلام مخاطبا عمرو بن الحجاج: أعليّ تحرض الناس؟ أ نحن مرقنا من الدين، وأنتم ثبتم عليه؟ أما والله لتعلمنّ لو قد قبضت أرواحكم، ومتّم على أعمالكم، أيّنا مرق من الدين، ومن هو أولى بصليّ النار!(٤١). كلام الحسين عليه السلام هذا أثر في عمرو بن الحجاج فأخذ أصحابه وإنصرف. وهذا دليل على تأثير الحسين عليه السلام فيمن يسمعه.

الخاتمة:

بنيت فكرة بحثي على مفهوم الاقناع الذي ينبع من الخطابة التي تعتمد على مبدأ الصدق الذي تدعمه كل المضامين التاريخية المتمثلة بالوقائع والشخصيات، باحثة في كل هذا عن القوانين التداولية التي تتحكم بها، لكون تلك الخطب نصوصا فنية يعتمد بناؤها

على لغة تقريرية لها قوانينها الخاصة؛ لكونها مناظرات كاشفة بذلك عن الحوار الفكري الذي أقامه الحسين عليه السلام بينه وبين سامعيه، ولا أعني السامعين في وقته، وإنما السامعين كلهم حتى يومنا هذا وإلى ان تقوم الساعة، محاولة في كل ذلك تناول تلك النصوص من وجهة نظر حجاجية لكون تلك النصوص تفاعلا يقوم على الإقناع وسوق الأدلة والبراهين.

وجدت في الخطاب الحسيني أنه استعمال متقن للأعراف الكلامية الناتجة عن الصراع المحتدم بين الأفكار والعواطف التي تنتج عن التعارض بين الفكر الحسيني والطرف الآخر، وفي هذا الخطاب نجد تمثل العلاقات الإنسانية بطريقة تتجلى فيها أفعال الكلام في واقع صحيح ماثل أمام القارئ قد يفتقده كل خطاب آخر حتى لو كان على مستوى عالٍ من البلاغة.

وإطار الخطاب التداولي هو مجموعة شروط استطاع من خلالها الحسين عليه السلام من النجاح التام في تحقيق أفعال الكلام عندما نطق بكلامه الشريف، وبهذا لم تكن لغته الفصحى مجرد لغة يعبر بها عن أفكاره، وايصال المعلومات إلى المتلقي، بل كان خطاب الحسين عليه السلام محور عملية تداولية تكونت فيها مشاركة فاعلة بين المستمع والمتكلم، مكنته من التأثير في المتلقي من خلال الطاقات

Abstract

ImamAl- Hussein (peace be upon him) regarded asa master of masters for Arab rhetoric.He has been able in his speech in the(al-taff) the battle ofkarbalato offers words leading to whom hear them to submission and acceptance.He provided in his speech guidance's leading to direct result on the listener submission that depended upon the primaryLinguistic elementstowards the installation of the particular structure that showed the inadvertently of the speaker.The speech of ImamAl- Hussein (peace be upon him) aimed to achieve two objectives including reporting and persuasion by basing on the mental and scientific evidences.I tried in the current research to answer the following questions: What positions that wererepresented in the Arguments inAl –Hussein speech،the path of the Arguments and indicators of protest in it.The Imam Al-Hussein (peace be upon him) tried by dialogue to convince his listeners by substantiated evidences

هوامش البحث

(١) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، نشر بعناية يوسف بك محمد الحنفي ومحمد أفندي عبد اللطيف المطبعة الحسينية، القاهرة ـ مصر، ١٣٣٦هـ: ٥/٤٥٠.

(٢) م. ن: ٥/٤٠٣.

(٣) الحجاج في الداولية: مدخل إلى الخطاب البلاغي، صابر الحباشة، مجلة ثقافات، ٢٠١١م: ٢٠٣.

(٤) ينظر م. ن: ٢٠٤.

(٥) ينظر م. ن: المكان نفسه.

(٦) ينظر طبيعة العلاقة بين الخطاب الدعائي والخطاب السياسي، د. نزهت محمود نفل، مجلة الباحث الإعلامي، آذار، ٢٠٠٨م: ٤٨.

(٧) ينظر التداولية وآفاق التحليل، الأستاذة شيتر رحيمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة ـ الجزائر، جانفي ـ جوان، ٢٠٠٨ م: ٣.

(٨) ينظر علم الدلالة السمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان ـ الأردن، ط١، ٢٠٠١م: ١٥٧.

(٩) ينظر التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة العربية للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٥م: ١٦.

(١٠) ينظر التداولية اللسانية، اللغة والأدب، الطاهر لوصيف، مجلة أكاديمية، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، عد١٧، ٢٠٠٦م: ٨.

(١١) ينظر التداولية مفاهيم ومصطلحات، د. تحريشي عبد الحفيظ، موقع اللسانيات والتربية (Kenanaonline.com).

(١٢) ينظر التداولية عند العلماء العرب / دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي: ١٦ وما بعدها.

(١٣) ينظر تاريخ الرسل والملوك: ٥/ ٤٤٧ـ ٤٤٨.

(١٤) ينظر التداولية عند العلماء العرب: ٣١.

(١٥) ينظر م. ن: ٣٢.

(١٦) ينظر م.ن: ٣٢.

(١٧) ينظر قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط ـ المغرب، ط١، ٢٠٠١م: ١٦.

(١٨) ينظر تاريخ الرسل والملوك: ٥/ ٤٤٨.

(١٩) ينظر التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي: ٢١.

(٢٠) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية، الدكتور أحمد المتوكل، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط١، ١٤٠٥/١٩٨٥: ٨، ٩، ٢٨).

(٢١) ينظر الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩.

(٢٢) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٠٣ ـ ٤٠٥.

(٢٣) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩.

(٢٤) ينظر: م.ن: ٣٠.

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٢٠ - ٤٢١.

(٢٦) ينظر الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٦٩، ١٠٨، ١٠٩.

(٢٧) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٢٣ - ٤٢٦.

(٢٨) ينظر الوظائف التداولية في اللغة العربية: ١٤٣.

(٢٩) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٢٣ - ٤٢٦.

(٣٠) ينظر الوظائف التداولية في اللغة العربية: ١٤٣، ١٤٥.

(٣١) ينظر م. ن: ١٤٧.

(٣٢) ينظر م. ن: ١٥٢.

(٣٣) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٥٠ - ٤٥١.

(٣٤) م. ن: ٥/٣٨٦ - ٣٨٦.

(٣٥) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٣٨٤ - ٣٨٥.

(٣٦) ينظر التداولية عند العلماء العرب: ٤٠.

(٣٧) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٤٠.

(٣٨) ينظر التداولية عند العلماء العرب: ٤١ - ٤٢.

(٣٩) تاريخ الرسل والملوك: ٥/٤٤٣ - ٤٤٧.

(٤٠) م. ن: ٥/٤٣٨.

قائمة المصادر والمراجع

- تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، نشر بعناية يوسف بك محمد الحنفي ومحمد أفندي عبد اللطيف المطبعة الحسينية، القاهرة - مصر، ١٣٣٦هـ.
- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
- التداولية اللسانية، اللغة والأدب، الطاهر لوصيف، مجلة أكاديمية، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، عد١٧، ٢٠٠٦م.

- التداوليــة مفــاهيم ومصــطلحات، د. تحريشــي عبــد الحفــيظ، موقــع اللســانيات والتربيــة (Kenanaonline.com).

- التداولية وآفاق التحليل، الأستاذة شيتر رحيمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة ـ الجزائر، جانفي ـ جوان، ٢٠٠٨ م.

- الحجاج في الداولية: مدخل إلى الخطاب البلاغي، صابر الحباشة، مجلة ثقافات، ٢٠١١م.

- طبيعة العلاقة بين الخطاب الدعائي والخطاب السياسي، د. نزهت محمود نفل، مجلة الباحث الإعلامي، آذار، ٢٠٠٨م.

ـ علم الدلالة السمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان ـ الأردن، ط١، ٢٠٠١م.

ـ قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط ـ المغرب، ط١، ٢٠٠١م.

- الوظائف التداولية في اللغة العربية، الدكتور أحمد المتوكل، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط١، ١٤٠٥ـ ١٩٨٥.